الجذور التاريخية للمكتبات ودورها في صناعة الحضارة العربية الاسلامية

أ.م.د. هيفاء سليمان الإمام

الجامعة اللبنانية الدولية

h_imamomais@hotmail.com

الملخص

تعد المكتبة دليلاً بارزاً على طريق التطور، إذ إن ازدهارها في عصر من العصور هو دليل على رقي هذا العصر، وانطلاقه في مجال العطاء العلمي والإبداع الثقافي. وليس من السهل تحديد الزمان والمكان الذي بدأت فيه الكتب والمكتبات بالظهور، ولكن ما كشف عنه التاريخ الإنساني حتى اليوم وأكدته الحفريات الأثرية يدل على أن أولى المكتبات قد ظهرت في العالم العربي وبالتحديد في بلاد مابين النهرين وفي وادي النيل.

The Historical Roots of Libraries and Their Roles in Arab Islamic Civilization Industry.Historical study

Dr. Hayfaa AL Imam

Lebanese international university _ Liu

Abstract

Libraries were and still are the source of science and knowledge in schools, universities and science houses. Therefore, it is a must to briefly display Libraries' history and their cultural roles for what they were all along the ages generally and all along the Islamic era specifically. To show this matter, it was important to highlight the role of the book in knowledge creation of the Arabs Muslims and it is participation to recover their cultural status and location as well as how the libraries have played a role in building the scientific culture in the Arab human through history and in saving heritage and ancient sciences since they were the source from which all the subsequent civilizations have taken .

There were a lot of varieties of these libraries: some of them were public, some were private and others were as mortmain. They were all under basics and cultural laws and rules in their management, in the management of their affairs and in saving their important scientific and literary wealth .

The mortmain has played an important role and has participated in supporting and facilitating the education operation in the Muslim societies. So, the libraries in general and the mortmain libraries in specific were considered as one of the most important supports of civilization. They save and maintain the treasures of knowledge. They organize them and open their doors to everybody. They give an honest image of Muslims' interest in thought, science and scientists .

The mortmain libraries used to reflect Muslims' love to science, their keenness on spreading this love among people and their appreciation to the scientists and the students. Thanks to this love planted by Islam into the Muslims, the people

became interested in mortmain books, and in founding public and private libraries, and mortmain libraries and books have became one of the feats of Islamic civilization and its exploits that it exceeded with them all other civilizations.

المقدمة

تعد المكتبة دليلاً بارزاً على طريق التطور، إذ إن ازدهارها في عصر من العصور هو دليل على رقي هذا العصر، وانطلاقه في مجال العطاء العلمي والإبداع الثقافي. وليس من السهل تحديد الزمان والمكان الذي بدأت فيه الكتب والمكتبات بالظهور، ولكن ما كشف عنه التاريخ الإنساني حتى اليوم وأكدته الحفريات الأثرية يدل على أن أولى المكتبات قد ظهرت في العالم العربي وبالتحديد في بلاد ما بين النهرين وفي وادي النيل.

إشكالية الدراسة:

لكي تكون النظرة المستقبلية الى عالم المكتبات جلية وواضحة في هذا العصر، عصر التغيير وزمن التجديد، كان لا بد من عرض مختصر لما كانت عليه المكتبات في التاريخ عامة وعبر حقب التاريخ الإسلامي بشكل خاص، ولبيان هذا الأمر لا بد من الإجابة على إشكاليات عدة كان أهمها:

1- ما هو دور الكتاب في التكوين المعرفي لأبناء الأمة ؟؟ وما مدى اسهامه في استعادة مكانتها وموقعها الحضاري[1]؟؟ هل كان للمكتبات دور في بناء الحضارة العلمية لدى الإنسان العربي عبر التاريخ ؟؟

2- كيف أسهمت هذه المكتبات في حفظ التراث والعلوم القديمة؟؟

3- هل كانت هناك قواعد أساسية لإدارة المكتبات ؟؟ وما هي أنواع هذه المكتبات ؟؟

4- ما هو دور الوقف على المكتبات؟؟ وهل أسهم في دعم وتسهيل عملية التعليم والعلم عند المسلمين؟؟.

هذه الدراسة تحاول أن تبحث في الجذور التاريخية للكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية باعتبارها الحضن الأساسي لتوليد الأفكارالجديدة وتفاعلها وتطورها وهي المكان المناسب لتقاطع التيارات الفكرية والثقافية الإسلامية، مع التأثيرات الوافدة من الحضارات المجاورة، التي يمكن ان تسهم في وضع التراث الإسلامي في موضعه النسبي المحدود بالزمان والمكان المتغيران بطبيعة الأحوال.

هذه الاعتبارات وغيرها تقف وراء الاهتمام بهذه الورقة وتحاول أن تسلط الضوء على جانب منها، كما ويجب أن يكون هذا البحث استمرار

للتواصل وبداية لجهود أخرى تغني العمل المكتبي وتؤصله وتفيد العاملين في مكتباتنا المحلية والعربية[2].

أهمية الدراسة

إن معظم الإنتاج الثقافي والحضاري السائد والمهيمن اليوم، هو انجاز غربي يحمل خصوصيات الأمم الغربية الى حد كبير، ويقوم على منطلقات فكرية وافتراضات نظرية محددة، وقد لا تنسجم والأسس الفكرية والهوية الثقافية والحضارية للأمم الأخرى، لذلك فإن من حق الأمة الإسلامية، بل من واجبها-كما هو من حق أية أمة أخرى-أن تنظر في هذا الإنجاز نظرة تحليلية ناقدة في إطار منظورها الخاص ونظامها القيمي المتميز، فثمة إنجازات يمكن قبولها ، واخرى لا بد من رفضها ، وثالثة يلزم تعديلها، كل ذلك على وفق منهج محدد.

هدف الدراسة

يهدف هذا البحث إلى استعادة الهوية الثقافية والحضارية للأمة وتمكنها من الإسهام في ترشيد مسيرة الحضارة الإنسانية[3]، وذلك تحقيقا لمباديء الاستخلاف والعمران والتزكية، في إطار غايات الإسلام وقيمة، والسعي الى تطوير الحركة المكتبية باشكالها وأنماطها المختلفة. ففي مجال التوعية على أهمية دور المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية فقد كانت المكتبات وما زالت مصدراً للعلم والمعرفة في المدارس والجامعات ودور العلم، وهنا لا بد من عرض تاريخي مختصر لتاريخ المكتبات ودورها الحضاري.

1- المكتبات في العصر القديم

يعد اكتشاف الكتابة وتطور أشكالها ووسائلها من أهم الخطوات التي خطاها الإنسان في انتقاله إلى الحياة المدنية، فقد مكَّنته من تدوين المعرفة ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، كما جعلت التفكير الإنساني كله عملية متصلة ومستمرة، تتفاعل فيها الأفكار والثقافات والحضارات في سبيل التقدم وخلق المستقبل الأفضل، كما يعد ظهور الكتابة الأبجدية منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد فتحاً مجيداً في تاريخ الحضارة وانتقال الإنسان إلى ميدان واسع من ميادين المعرفة[4]

اختلف مفهوم المكتبة **library**، وتطوَّر مدلولها عبر العصور، وذلك لأن المكتبات القديمة لم تكن كالتي تنتشر هذه الأيام في تعدد أنواعها ومقتنياتها وطرائق تنظيمها وخدماتها، فالسومريون سموها **بيت اللوحات الكبير** لأنها كانت مليئة بالألواح الطينية، أما الفراعنة فقد أطلقوا عليها **قاعة كتابات**

مصر ومكان إنعاش الروح، واستعمل الرومان كلمة **Libri** وتعني الكتاب نفسه، ومنها جاءت كلمة **Library**، التي تعني مكتبة للبحث والمطالعة[5]وكلمة المكتبة كلمة حديثة في العالم العربي، ولم تستعمل إلا في القرن التاسع عشر، فقد استعمل العرب كلمة **دار** وكلمة **خزانة** للدلالة على المكتبة.

أ- نشوء الكتابة

إن أعظم ثلاثة إنجازات حضارية كان لها أكبر الأثر في تطور الكتب والمكتبات هي:

- **اختراع الحروف الهجائية ومن ثم الكتابة.**
- **يعد اختراع الكتابة أعظم اختراع في تاريخ البشرية، فالتاريخ كله يبدأ بالكتابة....**
- **اختراع أدوات الكتابة خاصة الورق، إذ اخترع الصينيون الورق، وعنهم انتقلت صناعته إلى سمرقند[6]، وإلى بغداد، وعن طريق العرب انتقلت صناعته إلى أوربا[7].**

كل ذلك يدل على حجم الجهد الكبير والخلاق الذي بذلته الشعوب والأمم خاصة في المنطقة العربية في سبيل الارتقاء في سلم الحضارة، والسبق الحضاري الذي أحرزه الإنسان منذ آلاف السنين في ميدان التعبير والتدوين وميدان نشر إشعاع الثقافة والحضارة وأبجديات التطور في العالم كله فعلى جدران كهوف هذه المنطقة وجدت أولى الصور التي عبّر فيها الإنسان عن إنسانيته وإمكانياته الخاصة ونزوعه إلى التعبير، وعلى الألواح الطينية أو أوراق البردي[8]وجدت أولى الكتابات في بلاد مابين النهرين ووادي النيل وسورية القديمة، وعلى الشواطئ السورية اخترعت أولى أبجدية في التاريخ، وفي هذه المنطقة ارتقى الإنسان، وحاول الارتقاء بالآخرين، فكتب وسجل وحفظ ما توصل إليه من معتقدات وعلوم ومعارف وآداب. وفيها أقام أول أشكال الدول، وبنى أول المدن والمكتبات والمدارس، يوم كانت الغالبية العظمى من أبناء البشرية ما زالت ملتصقة في البدائية والهمجية والجهل، كما حفظت مصر القديمة - أيام الحضارة الفرعونية-نصاً لعله أقدم نص في التاريخ يدل على منزلة الكتاب لدى الفراعنة إذ يقول النص - وهو لأحد حكماء قدماء المصريين لابنه يعظه وهو متوجه إلى مدرسته أول مرة-: «**يا بني ضع قلبك وراء كتبك وأحببها كما تحب أمك... فليس هناك شيء يعلو منزلته على الكتاب، وأعلم يابني أنه ما من طبقة من الناس إلا فوقها طبقة أخرى تحكمها إلا الحكيم، فهو الوحيد الذي يحكم نفسه بنفسه**»[9].

ب-تنظيم المكتبات في العصور القديمة

اتبعت المكتبات في العصور القديمة الأسلوب الإداري حيث كان يجري تعيين موظف مسؤول عنها ، وذلك على وفق الخبرة والثقافة مثل المؤلفين أنفسهم أو كبار العلماء أو من لهم خبرة باللغات الأجنبية والترجمة فضلاً عن الناسخ والخازن وغيرهم[10]. كما نمت معالجة المواد المكتبية على وفق الأساليب القديمة إذ كانت هناك عملية الفهرسة وتنظيم العلوم والمعرفة على وفق مواضيعها المتعددة من تاريخية ، أدبية ، وثائق رسمية ، معاملات تجارية، اتفاقيات وقوانين ، والأدعية الدينية . ولقد وجدت الملاحظات بشأن النصوص المكتوبة والهوامش من قبل المؤلفين أومدى أصالتهم، وأخيراً أستعمل الناسخ عليها الختم وظهر ذلك في مكتبة نينوى ومكتبة الإسكندرية[11].

كشف التنقيب عن الآثار في مدينة إيبلا الأثرية[12] عن ألواح مدن مطمورة وهي انعكاس للحقبة الحضارية ما بين سنة 2400_ 2250 ق.م، إذ شملت أوسع حضارة ثقافية وتجارية وتاريخية ودينية .

كما اتبعت المكتبات في العصور القديمة نظام التزويد والشراء والاستنساخ ، التبادل ، التوزيع ، والسعي لزيادة موجودات المكتبة قدر الإمكان[13].

من الملاحظ أن المكتبات في تلك العصور تميزت، بكونها بإنشاء من قبل الملوك والكهنة لها، ولكن الدخول إليها كان مسموحاً به لجميع القراء ودون مقابل _ أي مجاناً .

كان النظام في المكتبات العريقة وقتذاك، خاصة في مكتبة نينوى ومكتبة الإسكندرية، يسمح بالإعارة ، واسترجاعها ، وذلك من وجود أرقام على الألواح لإعارتها، وتخصيص قاعات خاصة للمطالعة .

1- المكتبات في العصر الإسلامي

لما كان الكتاب يمثل بما يحتويه من ثمرات الفكر الإنساني، وسيلة مهمة من وسائل العلم والمعرفة في أي عصر من العصور، وفي أي مجتمع من المجتمعات، فمن الطبيعي أن نقف على مقدار الأهمية العظمى التي تعطى للكتاب في الحياة العلمية لدى أية أمة من الأمم[14]. ومن أجل تحقيق الهدف الأسمى للفكر والحضارة، سعى الخلفاء ومحبو العلم في مختلف العصور الإسلامية، على جمع كل ما تقع عليه أيديهم من كتب ومخطوطات في أماكن خاصة أطلقوا عليها خزائن الحكمة أو بيوت الحكمة أو دُور العلم...

أ- تنظيم المكتبات عند المسلمين

كانت المكتبات الإسلامية تقام في أبنية جميلة تشرح صدور المترددين عليها[15]، وكان بها حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة، وكانت الكتب توضع على رفوف مثبتة على جدران الحوائط، وقد خصصت بعض الأروقة للاطلاع، وبعض الحجرات للنساخ والنسخ، وبعضها الآخر لدروس العلماء والمناظرات، وكانت هذه المكتبات تؤثث بأفخر الأثاث. وتفرش أرضيتها بالبسط والحصير، حيث يجلس المطلعون، ومن وصف المقريزي نفهم أن الستائر كانت تقام على النوافذ والأبواب، ولراحة المطلعين كانت أسماء الكتب وأسماء مؤلفيها تكتب على أطراف الصفحات وكان بالمكتبات العامة فهارس منظمة بحسب موضوعات الكتب[16]، كما كانت تلصق على جانب كل رف ورقة بها أسماء الكتب التي يحتويها، وقد سمح بالاستعارة الخارجية، خاصة للعلماء والأعيان. وعن هذه الروح الحضارية انتشرت المكتبات في شتى أنحاء العالم الإسلامي[17]، فمن النادر أن نجد مدرسة ليس بجوارها مكتبة، ونتكلم عن المكتبات العامة التي ينشئها أهل الخير وتكون على وفق طلبة العلم وعموم الفقراء وليس عن المكتبات الخاصة التي وجدت في غالب البيوت كما كان الحال في مدينة قرطبة، كانت هذه المكتبات العامة تحتوي على غرف للمطالعين، وقاعة للدراسة والبحث العلمي، وخازن للمكتبة يكون عادة من العلماء، وطائفة من النساخ الذين ينسخون الكتب المهمة، ومجلدون يهتمون بالكتاب حتى يحفظ لمدة طويلة[18]. وكان في قرطبة وحدها عشرون مكتبة عامة، أما عن المكتبات الخاصة فيكفي أن نذكر منها مكتبة الخليفة الأموي الحكم بن عبد الرحمن الناصر التي بلغت أربعمئة ألف مجلد، وبلغت خزانة الكتب في عهد الدولة الحفصية في تونس ستة وثلاثين ألف مجلد، وقد ذكرت زيغريد هونكه بأن متوسط ما كانت تحتويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر، كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة[19]. وقد أتلف الأسبان عندما احتلوا مدينة غرناطة مليوني مجلد حسب تأكيد أحد المستشرقين الأسبان المعاصرين[20] .

تعد المكتبات على أنواعها ثمرة من ثمرات النضج الثقافي، ذلك لأنها أظهرت أهمية التسجيلات المكتوبة في تنظيم العلاقات الإنسانية، وجاءت نتيجة الرغبة في تنظيم الأعداد الهائلة من المؤلفات التي تنتجها المطابع في مختلف مجالات المعرفة وحفظها، ورافق هذا التطور سعي إلى جعل المكتبة ملكاً للجميع، بعدما كانت حتى القرن الثامن عشر على وفق فئة قليلة من الناس، وتختلف أنواعها اليوم باختلاف أعمالها وأغراضها[21] .

ب- أهم مكتبات العالم الإسلامي في العصور الوسطى

أولاً: مكتبة بيت الحكمة في بغداد: وأشهر المكتبات على الإطلاق كان "دار الحكمة"، أو "بيت الحكمة"، وهي أول مكتبة أكاديميَّة وعامَّة تُقام في البلاد الإسلاميَّة ، كانت مكتبة بيت الحكمة التي أسسها العباسيون في "بغداد" وتعد أول صرح ثقافي أقامه المسلمون، كما كانت أعظمها شأنًا وأكثرها أثرًا؛ لما حوته من الكتب النفيسة والمخطوطات النادرة في شتى العلوم والمعارف بمختلف لغات ذلك العصر. وترجع النواة الأولى في وضع لبنات هذا الصرح الثقافي الكبير إلى خلافة **أبي جعفر المنصور**، الذي كان أول خليفة عباسيٍّ اعتنى بالعلوم بعدما رأى اختلاط العرب بالفرس والروم، وإن الحاجة تدعو إلى "معرفة علوم الفرس واليونان،فوجّه اهتمامه إلى ترجمة الكتب من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربية[22] .

ويُرجِع بعض المؤرّخين أوَّليةَ تأسيسها الأولى إلى **الخليفة هارونَ الرشيد**، لأن الازدهار الحقيقي لهذه المكتبة يرجع له. فقد حرص الرشيد على تزويدها بالكتب التي نقلت من بلاد الروم والقسطنطينية ومصر والشام، كما أضاف لها خزائنه مما اجتمع لديه من كتب، فاتسعت خزانة الحكمة، التي صار لها أقسام متعددة لكل منها مَن يقوم بالإشراف عليه، ولها مَن يتولى ترجمة الكتب المختلفة إلى العربية. فكان **يوحنا بن ماسويه** يتولى أمر الكتب التي أمر الرشيد بنقلها من بلاد الروم بعد أن فتحها، وجعله الرشيد أمينًا على ترجمة تلك الكتب وكان أكثرها في الطب، وعين له كتّابًا مهرة لمساعدته... وكان **أبو الفضل بن نوبخت الفارسي** يقوم بترجمة كتب الحكمة الفارسية إلى العربية، كما أصبح لبيت الحكمة مجلدون يجلدون الكتب، ويعتنون بزخرفتها وتنميقها[23] . وفي عهد **المأمون** بلغ الاهتمام ببيت الحكمة ذروته، حيث عمل المأمون على توسيع بيت الحكمة بزيادة عدد كتبها وبما يرد من كتب عديدة من بلاد الروم وغيرها، كما أرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب... وكان بين المأمون وإمبراطور الروم مراسلات، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فعهد المأمون إلى الحجاج بن يوسف بن مطر، وابن البطريق وغيرهما بإحضار بعض الكتب من القسطنطينية، وبعد أن عادوا إليه مزوّدين بالكتب التي وقع اختيارهم عليها، أمرهم بنقلها إلى العربية[24].

هذا وقد أنشأ المأمون إلى جانب مكتبة بيت الحكمة معهدًا رسميًّا للترجمة[25]، ويعد هذا المعهد من وجوه كثيرة، أعظم المعاهد الثقافية التي

نشأت بعد مدرسة الإسكندرية التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد زمن الإسكندر المقدوني. وقد تُرجم في عهده الكثير من الكتب اليونانية[26] نذكر منها؛ **"الحكم الذهبية لفيثاغورث، وبعض المصنفات لأبقراط وجالينوس** في الطب، وكتاب **السياسة والمدينة لأفلاطون**، وكتاب **المقولات والطبيعيات لأرسطو"**. كما جعل المأمون من مكتبة بيت الحكمة مجمعًا كبيرًا لنشر الثقافة والعلم بين الناس؛ إذ إنه يسَّر لطلاب العلم الاطلاع على الكثير من مؤلفات علماء وفلاسفة اليونان منقولة إلى اللغة العربية، كما اعتنى المأمون بختم الكتب المهمة بخاتمه، حتى تكون في مأمن من السرقة. وفي عهد **الخليفة المتوكل** جددت مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد. وقد تردَّد إلى هذه المكتبة بحثًا وتأليفًا من المشاهير: الفيلسوف الكِنْدي[27]، ومحمد بن موسى الخُوارزمي، وقد ضمَّت كتبًا من مختلِف العلوم؛ التراث الإسلامي، التراجم والسِّيَر، كتب الكيمياء، الفلك، الطب والجبر؛ واحتوَت على مَرصد فلَكيٍّ، وقد وصَفها المؤرخون بأنَّها مَجمع علمي، ومرصد فلكي[28]، ومكتبة عامة. وقد تركت مكتبة بيت الحكمة أثرًا كبيرًا لدى العديد من الوزراء والكبراء، الذين حرصوا على إنشاء خزائن ومكتبات خاصة[29]وعامة أسوة بمكتبة بيت الحكمة، فأنشأ **علي بن يحيى المنجم** خزانة للحكمة أقامها في ضيعته بـ"كركر" من نواحي "القفص" في بغداد، وهي خزانة كتبٍ عظيمة قصدها طلاب العلم يقيمون ويتعلمون فيها -على نفقته- صنوف العلم والأدب، مبذولة لهم الأرزاق، مغدقة عليهم العطايا. وكذلك الأمر بخزانة الوزير **الفتح بن خاقان**[30] ، الذي اشتهر بولعه بالكتب وجمعها، حتى توافرت لديه مكتبة من أكبر المكتبات في عصره[31]...

وتعدُّ مكتبة بيت الحكمة أكبرَ مكتبات العصر العبَّاسي، ظلَّت الخِزانةُ قائمةً يستفيد منها الروَّاد والعلماء وطلَّاب العلم، حتى وقعَ استيلاء المغول على بغداد سنة 656هـ؛ حيث نهَبوا وخرَّبوا، وألقَوا بالآلاف من المخطوطات في النَّهر[32]، فأصبحَت مياه النَّهر سوداء من لون المِداد! وبذلك ضاع جزءٌ كبير من تاريخ وذاكرة الإنسانيَّة في هذه الواقعة ووقائعَ مشابهة .

ثانياً:مكتبة بيت الحكمة بالقاهرة أو دار العلم: كانت المكتبات في الحضارة الإسلامية، منارات وجامعات لنشر العلم والثقافة؛ يجلس فيها القراء والفقهاء واللغويون والأطباء والفلاسفة في مكان واحد، يحملون هدفًا واحدًا هو نشر العلم والثقافة، في جو ساده التسامح والحوار البنّاء وحرية البحث العلمي[33].
لقد أنشئت هذه الدار في عهد الخليفة الفاطمي **الحاكم بأمر الله العبيدي** عام 395هـ[34]، ويقول المؤرخ الكبير أحمد بن علي المقريزي بشأن إنشاء هذه

الدار: "إن الحاكم بأمر الله نقل إليها من كتب قصره وخزائن القصور المهجورة ما يقدر بستمئة ألف مجلد، منها مئة ألف مجلد بديعة الخط والتجليد". وزاد المقريزي: "لقد أعطى الحاكم بأمر الله جُلّ اهتمامه لبناء هذه الدار، وكان له فيها مكان خاص، وقد فرشت المكتبة كأحسن ما يكون من الفرش، وعني بفرشها وزخرفتها وزين أبوابها وحجراتها بأنفس الستائر، وكسيت أرضيتها بالبسط والطنافس وزينت الجدران بخرائط قماشية عليها أقاليم الأرض، وعين لها القوم والخدم، وكان عدد الخزائن فيها أربعين خزانة تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر ألف كتاب، وكانت الرفوف مفتوحة والكتب في متناول الجميع، ويستطيع الراغب أن يحصل على الكتاب الذي يريده بنفسه ما تيسر له ذلك، فإذا ضلّ الطريق استعان بأحد المناولين"[35].

كما كانت دار الحكمة في القاهرة مقسمة على أقسام عدة؛ فقسم للفقهاء، وقسم لقراء القرآن الكريم، وقسم للفلكيين، وقسم لأصحاب النحو واللغة، وقسم للأطباء، إلى جانب قاعات عدة للمحاضرات والمناقشات والمناظرات،حيث كان **الحاكم بأمر الله** يحضر كثيرًا من هذه المناظرات في الدار[36].

كما رتب الحاكم للمقيمين بالمكتبة والباحثين أيًّا كان مجال اهتمامهم وأيًّا كانت جنسياتهم، مكافأة شهرية عرفت بـ"الجوائز السنية"، تدفع لهم من خزانة بيت مال المسلمين وليس من مال الوقف. كما أباح الحضور إلى دار الحكمة لجميع الراغبين على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم لتلقي الدروس والقراءة والنسخ والنقل والاستعارة، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه. كما كان بها مكان للإقامة والضيافة لمن يرتحلون إليها مسافات بعيدة.

وظلت دار الحكمة بفضل أساتذتها المشهورين[37] وما كان لها من مناهج متنوعة جمعت بين الدراسة العلمية والفقهية، تؤدي رسالتها العلمية حتى نشبت الحرب الداخلية في عهد المستنصر بالله، وكان ذلك بداية المحنة التي نكبت بها الدار وسائر المكتبات الأخرى في ذلك العهد[38].

ثالثاً: مكتبات الأندلس[39]**:** لقد قامت في قرطبة في عهدي الخليفتين **عبد الرحمن الناصر** [40]**، الأموي وابنه الحكم المستنصر** نهضة ثقافية كبرى، وظهر ذلك جليًّا بعنايتهم بإنشاء المكتبات التي بلغت في عظمتها وتأثيرها الثقافي، أشهر مكتبات ذلك العصر في بغداد والإسكندرية والقيروان. وقد حظيت هذه المكتبة برعاية ودعم الخلفاء والأمراء من بني أمية، حيث كانوا يشجعون العلماء والأدباء وأرباب الفكر في أي مكان ويغدقون عليهم العطايا

والهبات، حتى استقطبت كل حركة علمية وفكرية بزغت في أي بلد من البلدان بتشجيع أهلها بالهجرة إلى الأندلس، حتى غدت قرطبة - في هذه الحقبة- مهرجانًا علميًّا وصرحًا ثقافيًّا كبيرًا يموج بالعلماء والأدباء والمفكرين في شتى المجالات[41]

وقد أشار ابن سعيد إلى أن مكتبة كبرى للأمويين أسست في قرطبة في عهد الأمير **عبد الرحمن بن الحكم الأوسط،** وقد زودها بكتب كثيرة اشتراها من المشرق الإسلامي[42]. وعلى ما يبدو أن هذه المكتبة كانت النواة الأولى لمكتبة الخلافة الأموية في قرطبة التي تألقت في القرن الرابع الهجري، حيث أَولى الخليفة الناصر وابنه الحكم جُلّ اهتمامهما وعظيم رعايتهما لها... فإن شغفهما الكبير بجمع الكتب قد بلغ الآفاق ووصل إلى مسامع الناس في كل مكان... فها هو الإمبراطور قسطنطين السابع حاكم بيزنطة، لم يجد شيئًا يتقرب به إلى قلب الناصر حينما عزم على عقد معاهدة معه سوى أن يهديه كتابًا جديدًا لم يعرف من قبل وهو كتاب "ديوسفوريدس" في الطب.. ولم يكتف إمبراطور بيزنطة بذلك، بل قد أرسل بعد ذلك "نقولا" الراهب ليقوم بترجمته من اللغة الإغريقية إلى اللغة العربية. وإذا كان هذا هو الشأن بالنسبة الى الناصر، فإن ابنه الحكم المستنصر لم يكن أقل منه شأنًا في حرصه على جمع الكتب واقتناء النفيس منها قبل أن تظهر أو تشيع في مواطنها؛ فكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه[43]. وعندما بلغ إليه أن أبا الفرج الأصفهاني قد أوشك أن ينتهي من تأليف كتابه "الأغاني"، بعث إليه ألف دينار من الذهب وحصل منه على نسخة مبكرة من ذلك الكتاب قبل أن يشيع في العراق. وظلت هواية جمع الكتب وحب اقتنائها باقية في نفوس الشعب الأندلسي[44]حتى بعد انتهاء عصر خلافة بني أمية وزوال مكتبتهم في قرطبة ، إذ أخذ ملوك الطوائف يقلدون الخلفاء الأمويين في تعلقهم بالعلم، وتشجيع العلماء، وجمع الكتب النادرة، وإقامة المكتبات الخاصة التي تليق بجلال القدر وأبهة الحكم في إشبيلية وطليطلة وسرقسطة وبلنسية... حتى تعددت المكتبات الكبرى بتعدد الدويلات التي أقامها ملوك الطوائف؛ إذ حوت خزائنهم الآلاف من المجلدات والمخطوطات النادرة في شتى فروع العلم والمعرفة[45].وعندما استولى الملك "فرناندو" على غرناطة آخر معقل إسلامي في الأندلس، أصدر أمره بجمع المخطوطات الإسلامية من أيدي المسلمين، أحرقت في ميدان الرملة في غرناطة على مشهد ومرأى من الجماهير[46]، ولم يصل إلينا منها سوى مخطوط واحد وَضع عليه الحكم الثاني ملاحظات بخط يده.

رابعاً: مكتبات القيروان: أنشئت في مدينة القيروان المكتبات العامة والمكتبات الملحقة بالمساجد والمدارس والزوايا، وكانت هذه المكتبات مفتوحة للدارسين وتضم أمات الكتب... ومن أشهر هذه المكتبات التي كانت موجودة في القيروان، بيت الحكمة الذي أنشأه الأمير **إبراهيم الثاني الأغلبي**، الذي أراد به أن يضاهي بيت الحكمة في بغداد[47]؛ إذ كان هذا البيت نواة لمدرسة الطب القيروانية التي أثرت في الحركة العلمية في المغرب لزمن طويل.

وقد استقدم الأمير إبراهيم أعدادًا كبيرة من علماء الفلك والطب والهندسة والنبات والرياضيات من المشرق إلى المغرب، وزود منهم الفلكيين بالآلات الفلكية، إذ كان يبعث كل عام -وأحيانًا كل ستة أشهر- بعثة إلى بغداد بهدف تجديد ولائه للخلافة العباسية واقتناء نفائس الكتب المشرقية في الحكمة والفلك مما لا نظير له في المغرب. واستقدام مشاهير العلماء في العراق ومصر على هذا النحو، أمكنه في أمد قصير أن يقيم أنموذجًا مصغرًا من بيت الحكمة في بغداد، حيث جعل منها معهدًا علميًّا للدرس والبحث العلمي والترجمة من اللاتينية، ومركزًا لنسخ المصنفات كان يتولى الإشراف عليه حفظة[48]؛ مهمتهم السهر على حراسة ما يحتويه من كتب، وتزويد الباحثين والمترددين عليه من طلاب العلم بما يلزمهم من هذه الكتب بحسب تخصصاتهم، ويرأس هؤلاء الحفظة، ناظر كان يُعرف بصاحب بيت الحكمة[49].

1- الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية[50]

أ- تعريف الوقف:

الوقف في اللغة: هو الحبس والمنع، يقال: وقفت الدار؛ أي حبستها يعني حبسها في سبيل الله ويقال وقف فلانًا عن الشيء منعه عنه، والموقوف عند الفقهاء إما على ملك الواقف أو على ملك الله تعالى.

الوقف اصطلاحًا: تعددت التعريفات التي تناولت موضوع الوقف، إذ يعرفه الإمام أبو حنيفة بأنه: «حبس العين على حكم الواقف والتصدق بالمنفعة». ولعل التعريف الأشمل للوقف هو ما عرفه ابن قدامه: «تحبيس الأصل، وتسبيل الثمرة». ويقوى هذا التعريف لفظًا ومعنى، كونه مأخوذًا من كلام النبي، صلى الله عليه وسلم، في قوله لعمر بن الخطاب حين استشاره في أرض له: «احْبِسْ أَصْلَهَا وَسَبِّلْ ثَمَرَتَهَا». كما يُرجح هذا التعريف لسببين وهما: أن هذا التعريف اقتباس من قول النبي صلي الله عليه وسلم، والرسول ﷺ أفصح العرب لسانًا وأعلمهم بالمقصود من قوله. أن هذا التعريف خاص بذكر جوهر الوقف وإظهار حقيقته دون التطرق إلى أمور أخرى وجزئيات تكميلية[51].

أجمع تعريف شامل للوقف هو: تحبيس مالك مطلق التصرف ماله المنتفع به مع

بقاء عينه بقطع تصرف الواقف وغيره في رقبته، يصرف ريعه إلى جهة بر تقربًا لله تعالى"[52].

ب- أنواع المكتبات الوقفية عند المسلمين

كثُرت في العواصم الإسلامية دُور الكتب بشكل لا مثيل له في تاريخ العصور الوسطى، وتسابق الخلفاء والحكام والعلماء والأغنياء والأفراد العاديون من أهل الخير في وقف المكتبات والكتب، إما بصورة رسمية عامة، وإما بصورة فردية خاصة[53].

1- **المكتبات العامة:** هي مؤسَّسات ثقافية، يُحْفَظُ فيها تراث الإنسانيَّة الثقافي وخبراتها؛ ليكون في متناول المواطنين من الطَّبقات والأجناس، والأعمارِ، والمِهَن، والثقافات كافَّة؛ وكان من أمثلتها: مكتبة قرطبة التي أسَّسها الخليفةُ الأموي الحكَم المستنصر سنة (350هـ/ 961م) في قرطبة، ومكتبة بيت الحِكْمة ببغداد في القرن الثاني الهجري[54]، ومن ذلك: دار العلم في الموْصل، أنشـأها ابن حمدان الموصـلي بدعم وتأييد من حكام ووزراء عصره في حوالي عام 270 هجرية، ومن المكتبات العامة: دار العلم بالبصرة، ودار العلم ببغداد، وبيْت الكتب بالرَّيِّ، ودار الحكمة بالقاهرة، ودار الكتب بفيْروز آباد بإيران، وخِزانة الوزير المغربي في منطقة الجزيرة بالشام، وخِزانة الكتب بحل. ومكتبة بني عمَّار بطرابلس لبنان، ومكتبة الفتح بن خاقان ببغداد في زمن الخليفة العباسي المتوكل، ومكتبة بني جرادة[55].ومن المكتبات العامة أيضاً: دار الكتب في مدينة ساوَة بشمالي إيران، ومكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، ويقصدها الباحثون وطلاب العلم والمعرفة من أماكن عديدة، رغبة في مخطوطاتها النفيسة. وكانت هذه المكتبات وغيرها تشتمل على الكتب المخطوطة النفيسة، في شتى العلوم والفنون والثقافات، ولاسيما كتب العلوم الشرعية والعربية[56]

2- **خزائن أو مكتبات المساجد:** حظيت المساجد بعناية فريد في شتى العصور الإسلامية، ومن مظاهر ذلك أنْ وُقِفت فيها المصاحف والكتب الدينية _ بشكل خاص _ لتحقيق مزيد من التنمية الروحية والارتقاء الديني والسلوكي والمعرفي في عموم الأفراد الذين يتردَّدون عليها، وغدا لكثير من المساجد مكتباتٌ خاصة بها، وقفها المحسنون من الحكام والقضاة والأغنياء وأهل العلم، بل شارك في وقفها كثير من الأفراد العاديين[57]. ويُعَدُّ هذا النَّوع من المكتبات الأوَّلَ في الإسلام؛ حيث نشأَت المكتبات في الإسلام مع نَشْأة المساجد، ومن أمثلتها: مكتبة الجامع الأزهر، ومكتبة الجامع الكبير في القيروان و مكتبة جامع آمُد في ديار بكْر بجنوبي تركيا، ومكتبة جامع أبي حنيفة ببغداد، وأنشئتا في

القرن الخامس الهجري، ومكتبات جامع نيسابور بشرقي إيران، والجامع الكبير بحلب، والجامع الزيْدي ببغداد، وجامع أصفهان بإيران، ومكتبة المسجد النبوي التي أُنْشِئت في القرن السادس الهجري، ومكتبات الجامع الأموي بدمشق، ومسجد الرضواني في تعز باليمن وجامع الزيتونة بتونس، ومكتبة الحرم المكي، ومكتبة جامع غرناطة بالأندلس.

وكان معظم مكتبات المساجد يشتمل على نسخ مخطوطة فريدة من القرآن الكريم، بعضُها مكتوب بالذهب، فضلا عن المؤلَّفات العلمية المتنوعة الكثيرة، وبخاصة ما يتصل بعلوم القرآن والحديث والفقه والعربية... التي يستفيد منها مرتادو المساجد، ولاسيما الطلاب الذين يحصِّلون العلم والمعرفة في أثناء تردُّدهم على حلقات العلم[58] في المساجد والجوامع. وممَّا يُذكَر من مدوناتٍ في العصر الأول - وبعضُه من موروث العصر الجاهلي - تلك المعاهَدَات والرسائل، والوثائق والأنساب التي احتفظَت بها القبائل وبعضُ الإمارات.

3- **مكتبات المدارس:** حيث أَوْلَتِ الحضارةُ الإسلامية عنايتها لإنشاء المدارس من أَجْل تعليم الناس جميعًا، وقد أُلْحِقَت المكتبات بهذه المدارس، وهو الشيء الطبيعي المكمِّل لهذا الرُّقِيِّ والازدهار، وبشكل عامٍّ فقد انتشرَت المدارس في الإسلام انتشارًا واسعًا في مدن العراق وسوريا ومصر وغيرها، وقد أُلحقَت بمعظم المدارس الإسلامية مكتبات. اعتنى واقفو المدارس والمعاهد بتوفير أكبر عدد ممكن من الكتب التي تعضد العملية التعليمية، وتعزِّز قاعدة التقدم المعرفي، وذلك رغبة في تكوين ثقافة واسعة راقية متنامية، تعود بالفائدة على المعلِّم والمتعلِّم والمجتمع[59].

ومن هنا نشأت المكتبات الوقفية الكثيرة الملحقة بالمدارس والمعاهد الوقفية، وكان للفضلاء من الحكَّام والعلماء والقضاة والأثرياء وطلاب العلم والأفراد العاديين من الناس مشاركات لاحقة، أضافت كتباً متميِّزة إلى مكتبات المدارس والمعاهد في شرائها من الأسواق ووقفها في تلك الأماكن.

ومن مكتبات المدارس والمعاهد تلك: مكتبات مدارس الأمير أبي الحسن المُرَيْني، الذي وقَف كتباً كثيرة ومتنوّعة على المدارس والمعاهد التي بناها في مدينتَيْ تونس والقيروان. ومنها: مكتبات المدرسة البيْهقية بنَيْسابور، والمدرسة النظامية ببغداد، والمدرسة النُّورِيَّة بحلب، والمدرسة الفاضلية بالقاهرة، والمدرسة العُمَرية بدمشق، والمدرسة الشهابية بالمدينة المنورة، والمدرسة النَّصْرية بغرناطة - بإسبانيا - ومدرسة أعظم شاه بمكة المكرمة، ومدرسة السلطان الأشرف بتعز باليمن، ومدارس أخرى كثيرة انتشرت في

أصقاع العالم الإسلامي: مشرقِه ومغربِه، بل كان يوجد في المدينة الواحدة أكثرُ من عشر مدارس، لكل منها مكتبة خاصة بها، تشتمل على مئاتِ بل ألوفِ الكتب المخطوطة النفيسة، في شتى العلوم والفنون والثقافات[60] وقد ذكروا: أن ابن الجوزي رحمه الله أحصى عدد الكتب الموقوفة في مكتبة المدرسة النظامية ببغداد[61]فبلغت ستة آلاف كتاب، كما ذكروا: أنه بلغ عدد الكتب الموقوفة في مكتبة الجامع الأزهر تسعة عشر ألف مجلد.

4- **خزائن كتب البيمارستانات أو مكتبات المستشفيات:** لم يقتصر وقْف الكتب والمكتبات عند المسلمين على دُور الكتب العامة والمساجد والمدارس، بل تجاوزها إلى غيرها من المواضع التي يُمْكن فيها تحقيق مزيد من التقدم المعرفي، فأقدموا على وقف المكتبات في داخل المراكز الطبية والمستشفيات[62] (البيمارستانات) التي كانوا يقيمونها[63].

ومن تلك المكتبات الوقفية: مكتبة مستشفى أحمد بن طولون بالقاهرة سنة 259 للهجرة، الذي كان فيه خزانة كتب فيها أكثر من مئة ألف مجلد، في علوم الطب وفي غيره من التخصصات المعرفية[64].

ومنها: مكتبة المستشفى العَضُدي ببغداد، الذي أنشأه عضُد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري، وألحق به مكتبة كبيرة، ومنها: مكتبة مستشفى نور الدين الزنكي بدمشق، وكان فيها خزانتان من الكتب أكثرها في العلوم الطبية، ومنها: مكتبة المستشفى المنصوري بالقاهرة، التي احتوت على كتب كثيرة، منها كتب العالم المعروف بابن النفيس، المتوفى في سنة 687 للهجرة، الذي وقف جميع كتبه على هذا المستشفى الذي كان يعمل فيه.

5- **مكتبات الزوايا والرُّبُط والخانْقاهات**: انتشر بناء هذه الأماكن ووقْفُها في القرن الرابع الهجري، وكان مِمَّن يأوي إليها: الزُّهَّادُ وأهل العلم وطلابه، الراغبون في التخَلِّي والعزلة من أجْل مزيد من التعبُّد. وكان لكثير من هذه الأماكن يشتمل على مكتبات وقفية للمطالعة والبحث.

ومن ذلك: الرباط الطاهري ببغداد، الذي أنشأه الخليفة العباسي الناصر لدين الله في عام 598 للهجرة، ووقف فيه كتباً كثيرة كانت من أحسن الكتب. ومن ذلك: مكتبة رِبَاط المأمونية ببغداد، ومكتبة ربَاط ربيع بمكة في القرن السابع الهجري، ومكتبة رباط عثمان بن عفان بالمدينة النبوية، ومكتبة خانقاه السُّمَيْسَاطِيَّة بدمشق، في القرن السادس الهجري، وغير ذلك كثير[65]. وكانت هذه المكتبات تشتمل على الكتب المخطوطة النفيسة، في شتى العلوم والفنون والثقافات، ولاسيما كتب العلوم الشرعية والعربية.

6- **مكتبات المقابر والتُّرَب**: عمَد بعض الواقفين إلى إنشاء مكتباتٍ قُرْب أسوار المقابر والتُّرب، حيث يتردَّدُ عليها الناس في طريقهم لزيارة القبور

والاعتبار بالموتى، والاستراحة بعض الوقت في تلك الأماكن. ومن ذلك: مكتبة تُرْبة أمِّ الخليفة ببغداد في عام 584 للهجرة، وكانت على شاطئ نهر دجلة، واشتملت على مئات الكتب النفيسة المتنوعة، ومكتبة تربة ابن البُزُوري بدمشق، ومكتبة التربة المنصورية بالقاهرة، ومكتبة تربة أوُغْلي في اسطنبول، وغيرها كثير.

7- **مكتبات خاصة وكتب وقْفية:** انتشر وقف الكتب بين فئات المجتمع الإسلامي كافة على امتداد القرون(66)، فكان بعض الناس يقفون كتبَهم في بيوتهم، ويفتحونها أمام القرَّاء في أوقاتٍ محدَّدة، وكان بعضُهم يَخُطُّ الكتب بيمينه ليَقِفَها على طلاب العلم والمعرفة، وكان آخرون يشترون الكتب أو يستأجرون من يخطُّها لهم؛ ليَقِفُوها على أهل العلم وطلابه. ومن ذلك: أن الفقيه اليمَني أحمد بن أبي السُّعود كان يَعْمَد إلى نَسْخ الكتب بيده، وإلى شراء كتب أخرى، ثم وقِفها جميعِها على طلبة العلم والمعرفة. وقد أسهم الأغنياءُ، والتجار، بل الفقراء، في هذا النوع من وقف الكتب، فقد حُكِي أن محمداً بن داود المؤصلي المتوفى سنة 728 للهجرة، كان تاجراً ماهراً في تجارة القطن، وكان يقِف الكتب الكبار في خدمة العلم وطلابه. أما رشيد بن عبد الله السَّعدي المتوفى عام 720 للهجرة، فكان خادماً في المسجد الحرام، وكان يصحَب العلماء، ويشتري لهم كتب العلم ويوقفُها عليهم.

ولم تمنع قلَّةُ الدخْل محمد بن ناصر البغدادي من علماء بغداد، من شراء الكتب ووقفها على العلماء وطلبة العلم لينتفعوا بها.

هذا، ومن الجدير هنا الإشارة إلى إسهام الكثير من النساء في كثير من البلدان الإسلامية عبر العصور السابقة والحالية، في وقف الكتب والمكتبات، ومن هؤلاء: **زوجة الخليفة المعتصم المعروفة بباب بشير**، وهي أم ولده أبي نصر، وقفت خزانة كتب في فقه المذاهب الأربعة، **وفاطمة بنت حمد الفُضَيلي الحنبلية الزُّبيْرية** ـ من بلدة الزُّبَيْر جنوبـي العراق ـ التي وقفت جميع كتبها في شتى الفنون على طلبة العلم، وتوفيت بمكة عام 1247للهجرة(67) .

هذا، ولا تزال المكتبات الرسْمية والأهلية، العامة والخاصة، في كثير من العواصم والمدن والبلدات والمساجد والمدارس والمعاهد والجامعات، وكثير من بيوت المسلمين، في بلاد الحرمين الشريفين وفي غيرها من البلاد الإسلامية، تقوم بدَوْرها الريادي في تحقيق مزيد من العلم والثقافة، وتعزيز التقدم المعرفي لعامة الناس وخاصتهم، من أساتذة وطلاب وطالبات وباحثين ومثقفين.

ج- الدور الحضاري للوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية

ظهرت ملامح وأسس تنظيم طلب العلم والدعوة إليه ونشره منذ صدر الإسلام، وتفرعت وتطورت في باقي العصور الإسلامية من بعده كالأموي والعباسي، فانتشرت العديد من المؤسسات التعليمية التي بُذل في سبيل تنظيمها وإدارتها وتمويلها الشيء الكثير، حيث أوقف وموّل الأوقاف على العلم والعلماء الأغنياء والوزراء والأمراء والسلاطين، فكثُر مرتادو دور العلم، ونّوع العلماء في طرائق تدريسهم، ووسائل تقويمهم، وأُنتجت الكثير من الرسائل والكتب والأبحاث[68].

من أهم المظاهر التي يتجلى فيها البعد العلمي للوقف إنشاء المكتبات ورعايتها وتزويدها بالكتب. والوقف على المكتبات وفتح أبوابها في وجه طلاب العلم، وهذا يعكس حب المسلمين للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه. وبفضل هذا الحب الذي غرسه الإسلام في أهله أقبل الناس على وقف الكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، فوقف المكتبات والكتب كان من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات. ولقد اتخذت هذه المكتبات أسماء متعددة مثل خزانة الكتب[69]، وبيت الكتب، ودار الكتب، ودار العلم، وبيت الحكمة.

أسهمت تلك المكتبات بدور فعال في عملية الاتصال بين العلماء؛ إذ عملت على إمداد المؤلفين بمصادر للمعلومات التي كان لها تأثير في مؤلفاتهم فيما بعد، كما وفرت تلك المكتبات الكتب النادرة والموجودة في المشرق، سواء توفرت هذه الكتب في مكتبات خاصة، أو شبه عامة، أم عامة، حتى أتاحت للمؤلفين أن يحصلوا على المعلومات التي يريدونها من داخل تلك المكتبات[70]، ونتيجة للوقف على الكتب نشأت حضارة شامخة، ارتكزت على مجموعة من الركائز، من أبرزها توفير الكتب للعامة، فانتشرت المكتبات في طول البلاد وعرضها، وانتشرت موجة حب الكتب والقراءة بين جميع طبقات المجتمع بلا استثناء. وانتشرت ظاهرة وقف الكتب في كل البقاع الاسلامية على مر العصور، وجرت العادة أن تسلم للخزانات العامة، لتوضع تحت تصرف طلاب العلم والعلماء،وبفضل وقف الكتب والمكتبات انتشرت الثقافة في العالم الإسلامي، وشملت جميع طبقات الناس، فقد كان نظام المكتبات يشجع الناس على الإقبال عليها؛ لما يجدونه من العناية والنفقة السخية والإقامة المريحة، فينكبون على القراءة والنسخ والمطالعة، لا يزعجهم همٌّ، ولا يشغلهم خوف، كل هذا بفضل الخير العميم الذي فاض على المجتمع الإسلامي من مؤسسة الوقف العامرة، كما أسهم الوقف على الكتب بطبيعة الحال في تنشيط حركة التأليف؛ إذ

تفرغ عدد كبير من العلماء في مختلف المجالات للتأليف، نتيجة توافر المكتبات الوقفية . وكان كثير من الأهالي يحبسون كثيرًا من أراضيهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد، مثلما فعل عبدالملك بن حبيب السلمي (238/ 852 م) الذي كان له أرض وزيتون بقرية بيرة، هي إحدى قرى غرناطة، وحبس جميع ذلك على مسجد قرطبة، ومكتبته بطبيعة الحال. وأمثلة وقف الكتب كثيرة، منها أن العالم أبا الوليد الباجي (ت 474 / 1081 م) أوقف كل كتبه على مسجد ببيرة عند أبي الحكم عبدالرحمن بن الحاج اللخمي (ت 601 هـ / 1204 م) خطيب المسجد القائم بالإشراف على مكتبة المسجد[71].

وهناك العالم ابن مروان الباجي الذي وقف كل كتبه على مكتبة المسجد الجامع بإشبِيلِية، وكذلك وقف محمد بن محمد بن لب الكناني طائفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة[72] كما كان الوقف الطريقة التي حصلت بها الجامعات العظيمة، مثل جامعتي قرطبة وطليطِلة، على مكتبتهما. كانت الكتب المحبوسة منهلًا صافيًا لطلاب العلم، وكان بعض العلماء يحبسون كتبهم عند أشخاص يثقون فيهم؛ لضمان الحفاظ عليها وعدم تبديدها، حتى يستفيد منها طلبة العلم بعد وفاة حابسها، ومنهم هارون بن سالم (ت238 هـ/ 852 م) الذي وقف كتبه عند أحمد بن خالد[73]وقاسم بن سعدان بن عبدالوارث (ت 347 هـ / 957 م) الذي حبس كتبه عند محمد بن أبي دليم، وقام الفقيه محمد بن عيسى بن إسحق التجيبي (ت 485 هـ / 1092 م) بحبس كتبه على طلاب العلم بالعدوة، ووقف أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الأزدي الحميدي (ت 488هـ/1095م) كتبه على أهل العلم، فانتفع بها الناس، كما قام محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجياني (ت 563 هـ / 1168 م) بوقف كتبه على أصحاب الحديث المقري: نفح الطيب: ج2، ص 157.، ومحمد بن محمد بن محارب الصريحي المالقي (ت 750 هـ / 1349 م) فقد عهد بريع كبير على طلبة العلم، وحبس عليهم كتبه[74] .

ولم يكن الخلفاء والأمراء والوزراء هم وحدهم الواقفين للمكتبات في سبيل الله، بل كان إلى جانبهم العلماء والأغنياء من أصحاب الأيادي البيضاء الذين يمارسون تلك الفضيلة، من أمثال علي بن يحيى بن المنجم الذي أنشأ مكتبة في سبيل الله، وخصص لها وقفًا للإنفاق على من يفد عليها، ونصت وثيقة وقفها على أن من يفد إليها يحق له الإقامة، وأخذ نفقته من الوقف المرصود لها. واقترح علي بن يحيى بن المنجم على ابن خاقان وزير المتوكل العباسي أن يقف من ثروته لإنشاء مكتبة في سامراء يوقفها على طلبة العلم، فعمل بنصيحته، وجلب لها الكثير من الكتب التي نسخت من مكتبات بغداد.

ويذكر ابن جبير في رحلته إلى مصر ما يدل على مبلغ إعجابه بمكتباتها يقول: ومن مناقب هذا البلد(أي مصر)، ومفاخره أن الأماكن في هذه المكتبات قد خصصت لأهل العلم فيهم، فهم يفدون من أقطار نائية فيلقى كل واحد منهم مأوى يأوي إليه ومالًا يصلح به أحواله. وبلغ من عناية السلطان بهؤلاء الذين يفدون للاستفادة العلمية، أن خصص لهم مستشفى لعلاج من مرض منهم، وخصص لهم أطباء يزورونهم وهم في مجالسهم العلمية، وخصص لهم الخدم لقضاء حاجاتهم[75]. وحوت المكتبة التي أوقفها ابن مليس الوزير الفاطمي على غرف عديدة للمطالعة، وقاعات خاصة للمحاضرات والمناظرات، وقاعة خاصة لتوجيه الباحثين والناشئين. وأعطيت من ريع وقفها مرتبات لطلبة العلم والعلماء والقائمين عليها. ومن المكتبات الوقفية المشهورة في تاريخ المسلمين، المكتبة التي بناها ووقفها بنو عَمَّار في طرابلس الشام، كانت آية في السعة والضخامة، ويقال إنها اشتملت على مليون كتاب[76] يتبين مما سبق ما للمكتبات الوقفية قديماً من إسهام جوهري في تحقيق مزيد من التقدم المعرفي، وتيسير أسباب الارتقاء الفكري، والتنمية الثقافية والعلمية للناس، وبخاصة المشتغلين بالعلم الذين غلب عليهم ضيق الإمكانات المالية، وذلك إذا استحضرنا غلاء قيمة الكتاب وقتذاك، إذ كان يُخَطُّ باليد، مع نُدْرة النُّسَخ المخطوطة في الأسواق، ويمكن لنا أن نتفهَّم هذا المعنى ونستخلصه من قولُ ابن الجوزي رحمه الله: "ولقد طالعتُ أكثرَ من عشرين ألف مجلد من الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، وأنا بعد في طلب العلم"[77] . وهكذا فتحت المكتبات الوقفية عموماً أبوابها للجميع، تيسيراً للمعرفة، وتنمية للفكر، وإشاعة للعلم، وتمكيناً من أسبابه وأدواته، لأنه لا يكفي الاقتصار على وقف أبنية المساجد والكتاتيب والمدارس ونحوها من مصادر الإشعاع المعرفي والثقافي، بل لا بد من تيسير الحصول على المصادر والمراجع للدراسة والبحث والتأليف، وتوفير المادة العلمية والثقافية _ بيسر وسهولة _ للمُعلِّم والمتعلِّم والمثقف وغيره، وتزويدهم بكل جديد، وتعريفهم على الأفكار والآراء المدونة، للمؤلفين والباحثين المفكرين والمبدعين في كل أرجاء العالم الإسلامي، وقد أكدت الدراسات المعاصرة أن وقف الكتب والمكتبات أنجح وسيلة لاستمرار المؤسسات العلمية في أداء رسالتها.

ولا بد هنا من الذكر أن المكتبات الوقفية كانت قد خضعت لأسلوبٍ علمي متقدم في الإدارة والتنظيم، إذ كان لكل مكتبة مسؤولٌ يسمى **خازن** المكتبة، **أمين** المكتبة، وكان ينبغي أن يتَّصف بالعلم والأمانة والكفاية ونحوها من الصفات اللازمة[78]. وكان للمكتبة **مُنَاوِلون** يُناولون الكتب للمطالعين، وهناك مترجمون، يترجمون الكتب غير العربية إلى العربية، فضلاً عن

النُّسَّـاخ و**المجلِّديـن** و**الخَدَم** وغيرهم من الموظفين والعاملين الذين تَسْتلْزمهم حاجة المكتبة. وكان لكل مكتبة فهارسُ يُرجَع إليها لتسهيل استعمال الكتب، وهـي مصنَّفةٌ تصـنيفاً علمياً موضوعياً، وبجانب هذا كانت توضع قائمـة على كل دولاب ـ خزانة ـ تحوي أسماء الكتب الموجودة في الدولاب[79]. وكانت المكتبات تَفْتح أبوابها يومياً، من بعد شروق الشمس إلى ما قبل غروبـها، وتعطِّـل في يوْمَيْ الثلاثاء والجمعـة، و في الأيام الثلاثة الأولـى من الأعياد. وكانت أموال الأوقاف تستمر في الإنفاق على المكتبات والموظفين والكتب المخطوطـة، وما تحتاجـه من تجليد ورعايـة وصيانة[80].

الخاتمة

وفي النهاية نقول: يجب علينا التأكيد أن العودة لدراسة التراث الفكري والعلمي للحضارة العربية الإسلامية، لا يعني رفض التجديد والتغني بأمجاد الماضي، بل العكس هو الصحيح؛ فكل حركة بعث أو تجديد حقيقية تبدأ بالعودة لهذا التراث لنستلهم قيمه ونستخرج جواهره وكنوزه.

ومن ثَمَّ يمكن القول: إن كل فكر قادر على التغيير هو فكر يبدأ بقراءة معاصرة للتراث، فدراسة التراث هي دراسة لبناء الحاضر واستشراف المستقبل، وعلى هذا يتعين علينا الاهتمام بدراسة تراثنا المكتبي وتأصيله؛ كي نعرف ماضينا الذي نهتدي منه الى مستقبلنا. مع الاستفادة من علوم ومعارف الآخرين؛ بُغية الوصول إلى منظومة علمية شاملة ومنهجية متكاملة تقدم كل ما هو نافع ومفيد من تراث إنساني للبشرية جمعاء.

تعد المكتبات بصفة عامة، ومكتبات الوقف بصفة خاصة، من أهم دعائم الحضارة؛ فهي تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع، كما أنها تعطي صورة صادقة لمدى عناية المسلمين بالفكر والعلم والعلماء، والوقف على المكتبات يعكس حب المسلمين للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه، وبفضل هذا الحب الذي غرسه الإسلام في أهله أقبل الناس على وقف الكتب، وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، وإن وقف المكتبات والكتب كان من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات.

هوامش البحث:

[1]) (العويضي: صفحة: 5)
[2]) (العويضي: صفحة: 12)
[3]) (الهلالي:صفحة:25)
[4]) (الجوهري: صفحة: أ و ب).
[5]) (علي: المكتبة،الموسوعة العربية).
[6]) (ريسلر: صفحة:104)
[7]) (ريسلر: صفحة:187)
[8]) (ريسلر: صفحة:126)
[9]) عاشور:الولع بالكتب ، ص: 86
[10]) (الجوهري:صفحة: 43)
[11]) (الجوهري:صفحة: 43)
[12] إيبلا (Ebla) مدينة أثرية قديمة في سوريا كانت حضارة ومملكة عريقة وقوية ازدهرت في شمال غرب سوريا في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.
[13] (ريسلر: صفحة:106)
[14] (الإمام: صفحة:161)
[15] (الهلالي:صفحة:30)
[16] (الجوهري:صفحة:93)
[17] ريسلر: صفحة:104-109)
[18] (الجوهري: صفحة: 103)
[19] (هونكه:صفحة:388)
[20] (الهلالي:صفحة:55) .
[21] (الجوهري: صفحة:119).
[22] (الجوهري:صفحة:121-122).
[23] (ليونز:صفحة :92-93)
[24] (ليونز:صفحة:95)
[25] (الجوهري:صفحة:121)
[26] (ليونز:صفحة:98)
[27] (ليونز:صفحة:106)
[28] (ليونز:صفحة:99)
[29] (ريسلر: صفحة:105)
[30] هو أبو محمد الفتح بن أحمد بن غرطوج، هو وزير وأديب وشاعر ترعر في أحضان الدولة العباسية، من أصول فارسية، عينه المتوكل أميراً ونائباً لشؤون مصر وإفريقية.
[31] (الجوهري:صفحة: 128 و129)
[32] (الجوهري:صفحة: 139)
[33] (الجوهري: صفحة 127)
[34] (أيوب، ابراهيم، صفحة:170)
[35] (الجوهري:صفحة:127).
[36] (أيوب،ابراهيم،صفحة:172)
[37] أيوب،ابراهيم،صفحة:173
[38] (الجوهري:صفحة: 139)
[39] للتوسع في هذا العنوان أنظر (الإمام: صفحة:161-173)
[40] (الجوهري: صفحة:135)

[41] (الجوهري:صفحة: 136).
[42] (الإمام: صفحة:162)
[43] (الإمام: صفحة:162)
[44] (هونكه:صفحة:353)
[45] (هونكه:صفحة:389).
[46] (الجوهري:صفحة: 139)
[47] (الهلالي:صفحة:51)
[48] (ريسلر: صفحة:106)
[49] (ابو زيد،خلف أحمد: مجلة حراء).
[50] (الإمام: صفحة:166)
[51] (أبو زيد، صفحة:102)
[52] (محمد ، صفحة:91)
[53] (الهلالي:صفحة:24)
[54] (الهلالي:صفحة:25)
[55] (السباعي، ص 157- 159).
[56] (ساعاتي، ص36-75).
[57] (الهلالي:صفحة:28)
[58] (الهلالي:صفحة: 32)
[59] (الهلالي:صفحة:28)
[60] (ساعاتي، ص 77-92).
[61] (الهلالي:صفحة:38)
[62] (الهلالي:صفحة:29)
[63] (بيك، ص4).
[64] (بيك، ص71).
[65] (ساعاتي، ص 108-113)
[66] (الهلالي:صفحة:27)
[67] موقع حمد الجاسر الثقافي على الانترنت، بحث: " إسهام المرأة في وقف الكتب" ص 719، ضمن بحوث ندوة المكتبات الوقفية المقامة بتاريخ 2004/2/17م.
[68] (الهلالي:صفحة: 24-55)
[69] (الهلالي:صفحة:27)،
[70] (عبده: ص: 158)
[71] (عبده: ص: 157)
[72] ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص 80 - 81. رابط الموضوع: http://www.alukah.net/culture/0/89101/#ixzz5Dx6wY7mu،
[73] القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مجلد 2، ج3، ص 48.رابط الموضوع: http://www.alukah.net/culture/0/89101/#ixzz5Dx8qmt35،
[74] مقال للدكتور تنور محمود زناتي بعنوان الوقف على المكتبات في الحضارة الاسلامية (الأندلس نموذج) اوضف في 10-7-2015. موقع الألوكة الثقافية www.alukah.net
[75] رحلة ابن جبير، ص272 ومن بعدها.
[76] المقريزي: الخطط، 4/ 226.أصالة حضارتنا، ص440..
[77] مجلة " أوقاف " الكويتية ص 104، العدد 11، السنة السادسة، بحث: "الأثر الثقافي للوقف في الحضارة الإسلامية "، للدكتور عبد الله الزايدي..
[78] (ساعاتي،ص:147-149)

[79] (الهلالي:صفحة:30)
[80] (ساعاتي،ص:162).

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو زيد، أحمد: (2000م).نظام الوقف الإسلامي وتطوير أساليب العمل وتحليل نتائج بعض الدراسات الحديثة، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، الرباط،
2. أبو زيد،خلف أحمد، مقال بعنوان(المكتبات .. منابع أصولنا الحضارية) مجلة حراء في 3/25/ 2012 .
3. الإمام، هيفاء سليمان،(2014) الحياة العلمية والفكرية في الأندلس وأثرها في أوروبا، بيروت –لبنان، دار النهضة العربية، ط:1، ج:1
4. أيوب، إبراهيم رزق الله،(1997) التاريخ الفاطمي الاجتماعي، بيروت-لبنان، الشركة العالمية للكتاب.
5. بيك ، أحمد عيسى، (1981) تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، دار الرائد العربي.
6. الجوهري، خيال محمد مهدي: (1992)، من تاريخ المكتبات في البلدان العربية،دمشق- سوريا ،منشورات وزارة الثقافة،
7. رابط الموضوع: http://www.alukah.net/culture/0/98108/#ixzz56AtNgHaU
8. ريسلر، جاك،(1993) ، الحضارة العربية، بيرةت-باريس، دار عويدات، ط:1.
9. السباعي، مصطفى: (1999) من روائع حضارتنا ، دار الوراق للنشر والتوزيع-المكتبة الإسلامية.
10. ساعاتي، يحي محمود : (1996م) الوقف وبنية المكتبة العربية استبطان للموروث الثقافي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ط 2.
11. عبده، شرين السيد: الاتصال الوثائقي في الأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية،
12. علي، أحمد (2002) الموسوعة العربية :المكتبة،(المكتبات المدرسية والتوثيق التربوي) جامعة البعث.
13. العويضي، إبراهيم علي،(1997م) ، دور الكتب والمكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، عمان – الأردن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية المكتبات الأردنية.
14. ليونز، جوناثان،(2014) كتاب بيت الحكمة كيف أسس العرب لحضارة الغرب، بيروت ،لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط:2
15. مجلة " أوقاف "الكويتية ص104، العدد 11، السنة السادسة، بحث: "الأثر الثقافي للوقف في الحضارة الإسلامية "، للدكتور عبد الله الزايدي.
16. مجمع اللغة العربية،(2004) المعجم الوسيط، مكتبة الشروق،ط:4.
17. محمد،علي جمعة: الوقف وأثره التنموي، أبحاث ندوة "نحو دور تنموي للوقف".
18. موقع حمد الجاسر الثقافي على الأنترنت، بحث: " إسهام المرأة في وقف الكتب"، ضمن بحوث ندوة المكتبات الوقفية المقامة بتاريخ 2004/2/17م.
19. موقع حمد الجاسر الثقافي على الانترنت، بحوث ندوة المكتبات الوقفية المقامة بتاريخ 2004/2/17م.
20. الهلالي، محمد مجاهد،(1995)، المعلومات والمكتبات، مسقط، المكتبة الأكاديمية.
21. هونكة، زيغريد، (1993) شمس العرب تسطع على الغرب،بيروت –لبنان ، دار الأفاق الجديدة، ط:8،